الفصل السادس عشر

الأستاذ الدكتور مصطفى زيور

عقل عالم، وقلب إنسان(*)

(*) كتب المؤلف هذا المقال تحية وتهنئة لأستاذه بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ١٩٨٨، ونشره بالعدد الثامن من مجلة علم النفس (أكتوبر – ديسمبر ١٩٨٨) ص ٧–١٠.

حصل أستاذنا الدكتور مصطفى رضوان زيور هذا العام (١٩٨٨) على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية. فكان فوزه بهذه الجائزة فوزاً للجائزة نفسها، التى وضعت في محك اختبار صعب منذ سنوات عديدة، عندما أخطأت كبار مستحقيها عن جدارة، ونالها كثير من ذوي الخطوة والشهرة الزائفة.

لقد كان الدكتور زيور مستحقاً لهذه الجائزة من سنوات طوال، لم يفز بها رغم ترشيح الجهات العلمية له، وكنا - نحن تلاميذه - نتساءل في دهشة عن سبب تخطي الجائزة له ؟؟!! لكن يبدو أن الحق - ولو طال الانتظار - ينبغي ألا نيأس من وصوله إلى صاحبه.

تمتاز حياة الدكتور زيور وتاريخه بتفرد واضح بين علمائنا الأجلاء في التكوين الأكاديمي، والنشاط العلمي على السواء. فلقد ولد في أول سبتمبر من عام ١٩٠٧ وحصل على درجة الليسانس في الفلسفة من كلية الآداب مع أول دفعة تتخرج من الجامعة المصرية عام ١٩٢٩، وهي جامعة القاهرة الحالية. ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل في عام ١٩٣٠ من جامعة السربون على شهادة الفلسفة العامة والمنطق، وعلى شهادة الكيمياء البيولوجية والطب فى عام ١٩٣٨، وعلى دبلوم الدراسات العليا في علم النفس التجريبي في عام ١٩٣٩. ثم حصل في عام ١٩٤١ على درجة الدكتوراه فى الطب من جامعة ليون (حيث اضطرته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى هجرة باريس إلى ليون). ولقد كان تحوله إلى الدراسة العلمية في الطب من أجل أن يتيح له ذلك دراسة التحليل النفسي والتخصص فيه، كما كانت تشترط كثير من معاهد التحليل النفسي آنذاك. وبالفعل التحق الدكتور زيور بمعهد التحليل النفسي بباريس، وقضى به نحو أربع سنوات حيث حصل على دبلوم التحليل النفسي وعلى زمالة جمعية باريس للتحليل النفسي، ثم زمالة الاتحاد الدولي للتحليل النفسي بعد ذلك. فكان بهذا أول محلل نفسي مصري، بل عربي أيضاً، يحصل على هذه الزمالة.

وأثناء إقامته بفرنسا، والتى أمتدت بضع عشرة سنة تقدم إلى عدة مسابقات في أمراض الجهاز العصبي والطب العقلي ظفر فيها بوظيفة طبيب مقيم بمستشفى تعليمي يتبع كلية الطب بجامعة باريس فقام بمهام تعليمية لطلاب الطب، وعلاجية للمرضى؛ هذا علاوة على البحوث العلمية التى نشرها آنذاك في الدوريات المتخصصة. ولقد وصل إلى منصب رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب بجامعة باريس قبل عودته إلى القاهرة للعمل فى الجامعة في أوائل الأربعينيات.

وهكذا، يتضح لنا أن الدكتور زيور قد وصل في إعداده الأكاديمي إلى أعلى درجات التخصص في الطب وعلم النفس والتحليل النفسي، علاوة على الأساس الفلسفي الذى اكتسبه من دراسة الفلسفة بالجامعة المصرية وبالجامعة الفرنسية. فإذا أضفنا إلى كل ذلك رغبته المتوقدة في قراءة ومتابعة أحدث ما تنشره الدوريات العلمية والمراجع والمؤلفات الموسوعية في هذه التخصصات العلمية الأربعة (الطب، وعلم النفس، والتحليل النفسي، والفلسفة)، تبين لنا صدق رأينا فيما قدمناه في صدر هذا المقال من أن الدكتور زيور امتاز بين علمائنا الأجلاء بتكوين أكاديمي متفرد، ممعن في الموسوعية والشمول، متعدد في التخصص، ضارب بجذور بعيدة الغور في جوانب الفكر الإنساني وفروعه المختلفة.

ومن المنطقي أن يقابل هذا الإعداد الأكاديمي المتميز نشاط علمي يعادله في المستوى. ولقد صدق هذا بالفعل. فقد مارس الدكتور زيور التدريس منذ أوائل الأربعينيات وحتى الآن، في جامعات مصر الثلاث الكبرى (جامعة فؤاد الأول وجامعة فاروق الأول وجامعة إبراهيم، والتى تحولت مسمياتها إلى جامعة القاهرة، وجامعة الاسكندرية، وجامعة عين شمس حسب الترتيب). فدرس فيها مواد علم النفس العام والتحليل النفسي وعلم النفس المرضي والطب النفسي وعلم نفس الطفل وعلم النفس التجريبي بكليات الآداب وكليات الطب. وكان في كل ذلك مثالا للأستاذ الجامعي الحق المتمكن من تخصصه، القادر على نقله وتدريسه

وشرحه لتلاميذه، الموضوعي في تقييمه لطلابه، الإنساني في علاقاته، والذى يترك لتلاميذه حرية اختيار وتبني ومناقشة وجهات النظر العلمية المختلفة.

ولقد كان من حظ جامعة عين شمس أن وقع اختيار المرحوم الدكتور طه حسين في عام ١٩٥٠ على الدكتور زيور لينشئ ويرأس قسم علم النفس بكلية الآداب بها (وكانت تسمى آنذاك بجامعة إبراهيم).

فقام بإنشاء هذا القسم مشتركاً مع قسم الاجتماع في السنتين الأولتين من الدراسة الجامعية ثم يستقل عنه في السنتين الأخيرتين. وبعقلية العالم التى تمتاز بتكريس الموضوعية وتحارب التعصب وضيق الأفق، قام بوضع برامج القسم واختيار مواده العلمية وأساتذته الذين سيساعدونه بحيث حقق في كل ذلك انفتاح قسم علم النفس على كافة التيارات العلمية المشروعة والتخصصات الأخرى التى تخدم علم النفس كالاجتماع والأنثروبولوجيا وتاريخ الحضارة والفلسفة والإحصاء. وهكذا لم يكن هذا القسم كما كان متوقعاً من محلل نفسى ينشئه ويرأسه أقرب الشبه بمعهد للتحليل النفسي الذى يعتبر الدكتور زيور رائده فى العالم العربي، بل كان ولازال قسماً لعلم النفس بمختلف تياراته؛ يتكامل فيه تيار التحليل النفسي مع تيار التجريب مع تيار القياس مع التيار الإكلينيكي مع تيار علم النفس الاجتماعي، ليعد كل ذلك إخصائياً نفسياً شامل النظرة للظاهرة النفسية، دونما تعصب لزاوية نظر معينة تعميه عن إدراك الجوانب المختلفة للظاهرة وتضيق عليه الخناق في فهمها. وهكذا استعان فى التدريس لهذا القسم بزملاء وتلاميذ له من تيارات علمية مختلفة؛ كان منهم المرحوم الدكتور يوسف مراد، والمرحوم الدكتور السيد محمد خيري، والمرحوم الدكتور أحمد وجدي، والدكتور لويس كامل مليكة، والدكتور مصطفى صفوان، والدكتور سامي محمود علي، والدكتور أحمد فائق، والدكتور أحمد عكاشة، والدكتور سيد عبدالحميد مرسي، والدكتور عبدالمنعم المليجي.. وبالتالي لم يكن مستغرباً أن تتخذ منه كثير من جامعات مصر

التى نشأت بعد إنشاء هذا القسم مثلا تحتذيه عند إنشاء أقسام لعلم النفس بها فتنقل عنه كثيراً من مواده وبرامجه وطرق تدريسه.. بل إننا عندما ذهبنا إلى جامعة محمد الخامس بالمغرب نجحنا في إنشاء قسم لعلم النفس كان فى مواده وبرامجه مشابهاً لقسم علم النفس بآداب عين شمس (وكان ذلك في النصف الأول من السبعينيات). ونقصد من هذا أن هذا القسم الذى أنشأه الدكتور زيور في جامعة عين شمس أصبح مثلا يحتذى في كثير من الجامعات العربية أيضاً.

هذا، وفي مجال إعداد طلاب الدراسات العليا وأساتذة علم النفس، نذكر أنه قد تخرج على يديه عشرات التلاميذ الذين يحملون درجات الماجستير والدكتوراة فى علم النفس، وعشرات المساعدين والمريدين الذين تشربوا عقلانية علمه وفكره، وإنسانية نزعاته واتجاهاته. وكل هؤلاء وأولئك ينتشرون الآن في الجامعات والمراكز العلمية المصرية والعربية والعالمية. ويكفي أن نذكر من بينهم الدكاترة مصطفى صفوان وسامي محمود علي وأحمد فائق.

وفي مجال التأليف ونشر الثقافة الجادة والمعرفة العلمية نجد أن للدكتور زيور باعاً طويلاً في هذا. فلقد اشترك وزميله المرحوم الدكتور يوسف مراد (أستاذ علم النفس آنذاك بكلية الآداب – جامعة فؤاد الأول) في إصدار «مجلة علم النفس»، والتى كانت تصدر ثلاث مرات فى السنة، وظلت هكذا لمدة ثمان سنوات من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣، دون أن يتخلف عدد منها عن موعد صدوره، حتى كان العدد الثالث والأخير من المجلد الثامن (فبراير – مايو ١٩٥٣)، الذى أعلن فيه توقف المجلة عن الصدور تحت عنوان حزين تصدر العدد يقول «صوت آخر يسكت». ولقد كانت هذه المجلة مثلا طيباً للمجلات العلمية والثقافية الجادة والملتزمة، حتى ذاع صيتها وأقبل على النشر فيها كبار العلماء من أنحاء العالم مثل سيرل بيرت Cyril Burt وبول فريس Paul Fraise وجون ويزدم John Wisdom وشارلز فالنتين Charles Valentine وهوراس إنجلش Horace English ومثل أيضاً

هنري فالون Henri Vallon عالم النفس الفرنسي المعروف والذى نشر مقاله الشهير «أثر الآخر في تكوين الشعور بالذات Le role de l'autre dans la conscience du moi» في مجلة علم النفس المصرية في عددها الأول بمجلدها الثاني (يونيو ١٩٤٦) وترجمه الدكتور يوسف مراد فى العدد التالي (أكتوبر ١٩٤٦). وكانت المجلة تنشر هذه المقالات بلغاتها الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) ثم تترجمها أو تلخصها فى الأعداد التالية. كما كانت مجلة الملخصات السيكولوجية Psgchological Abstracts التى تصدرها جمعية علم النفس الأمريكية تتولى نشر ملخصات عما يصدر في «مجلة علم النفس» المصرية. وما كان هذا متاحاً لولا جدية رئيسي تحرير المجلة وسمعتهما الطيبة في الأوساط العلمية العالمية. ولاشك أن مجلة علم النفس تعتبر خير شاهد على جدية الثقافة المصرية، والتزامها العلمية والعقلانية، وولاءها القومي في ذاك العصر.

ولقد واصل الدكتور زيور خدمته للثقافة العلمية الجادة برئاسته تحرير «مجلة الصحة النفسية» في أول صدورها عام ١٩٥٨، والتى كانت تصدر عن الجمعية المصرية للصحة العقلية ثلاث مرات فى العام.

كما أنه أشرف على ترجمة ونشر أمهات كتب التحليل النفسي والتى ألفها سيجموند فرويد وأنافرويد وأوتوفينخل، وذلك في سلسلة أشرف على إصدارها بإسم «المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي» تولت دار المعارف نشر أغلبها ثم اشتركت معها بعد ذلك مكتبة الأنجلو المصرية. وكان يكتب تصديراً لكل منها هو في حد ذاته يعد إسهاماً علمياً جاداً وأصيلا في موضوعه.

كما أشرف أيضاًعلى إصدار سلسلة ثقافية علمية بإسم «مكتبة الدراسات النفسية والاجتماعية» قام فيها بتقديم بعض المؤلفات النفسية الهامة سواء المؤلفة أو المترجمة.

وفى الخمسينيات أفردت الإذاعة المصرية للدكتور زيور سلسلة من الأحاديث في التحليل النفسي، كان كل منها بمثابة محاضرة قيمة ودرساً شيقاً عن موضوع أو مشكلة عامة، كالقمار والاكتئاب والنسيان والقلق النفسي.. وقد نشرتها وزارة الارشاد القومي آنذاك بعد إذاعتها ضمن كتاب بعنوان «في التحليل النفسي» صدر في سلسلة «مختارات الإذاعة». كما استدعته كثير من الجمعيات والهيئات العلمية لإلقاء محاضرات عامة يبرز فيها وجهة نظر علم النفس في بعض المشكلات والقضايا المثارة.

وكان للدكتور زيور أيضاً فضل الريادة في العالم العربي لدراسات وبحوث الأمراض السيكوسوماتية Psychosomatics (الأمراض الجسمية التى ترجع في أسبابها الجوهرية إلى عوامل نفسية). بل إنه منذ وقت مبكر في اكتشاف هذه النوعية من الأمراض والقيام ببحوث فيها (في الأربعينيات) شارك أستاذنا الدكتور زيور على المستوى العالمى ببحوث عنها نشرت له في الخارج، كان بعضها بالحوليات الطبية الفرنسية. ولذا لم يكن مستغرباً أن يكون أول مدير لمعهد الطب السيكوسوماتي الذى أنشئ بباريس هو الدكتور سامي محمود علي، أحد تلاميذ الدكتور زيور ومساعديه.

وعندما شرع المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القيام ببحث ميداني شامل عن تعاطي المخدرات في مصر، أسند إلى الدكتور زيور رئاسة هيئة البحث، حيث قام بتكوينها في عام ١٩٥٧ بشكل نموذجي إذ ضمت خبراء واستشاريين في علم النفس والاجتماع والطب والاحصاء. واستمر رئيساً لها ومشرفاً عليها حتى عام ١٩٦٥، حيث صدر خلال هذه المدة من رئاسته وإشرافه تقريران في مجلدين كبيرين عن هذا البحث نشرهما المركز القومي (الأول عام ١٩٦٠ والثاني عام ١٩٦٤).

وكان الدكتور زيور أيضاً رئيساً للجنة علم النفس التى تولت كتابة المصطلحات النفسية التى ضمها «معجم العلوم الاجتماعية» الذى أصدرته اليونسكو بالاشتراك مع مجمع اللغة العربية؛ بمراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، ونشرته الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥. كما أنه قد ترجم لأعلام علم النفس في «معجم أعلام الفكر الإنساني» والذى قام بتصديره الدكتور إبراهيم مدكور ونشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة جزءه الأول عام ١٩٨٤؛ على أمل بنشر الأجزاء التالية تباعاً.

كما كان الدكتور زيور أول رئيس للجنة العلمية لجمعية الطب النفسي (وهي أحد فروع الجمعية الطبية المصرية)، كما كان أيضاً مقرراً للجنة علم النفس بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

وعلاوة على هذا وذاك فقد قام الدكتور زيور بتمثيل مصر في كثير من المؤتمرات العلمية العربية والعالمية وألقى فيها بحوثاً علمية أصيلة، وجادة نالت تقدير الأوساط العلمية واهتمامها. من ذلك على سبيل المثال تمثيله لمصر فى أول مؤتمر دولي للطب النفسي والذى عقد بباريس عام ١٩٥٠، وتمثيله لمصر في المؤتمر الدولي السابع عشر لعلم النفس (عام ١٩٦٠).

وإضافة إلى كل هذا، فقد قدم الدكتور زيور الكثير من المقالات التى نشرت في «مجلة علم النفس» و«مجلة الصحة النفسية» السابق ذكرهما، وفي مجلات ثقافية وعلمية مصرية وعربية وعالمية أخرى كثيرة. ومن حسن الحظ أن غالبية هذه المقالات قد جمعت أخيراً في كتاب بعنوان «في النفس» صدر عن دار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦.

والدكتور مصطفى زيور في كل ما كتب أو حاضر أو أذاع يتناول بالتحليل والتأصيل موضوعات وقضايا تهم العلم كما تهم المجتمع، يستفيد منها الطالب

والأستاذ، المتخصص والمثقف العام، وتعتبر مراجع أصيلة لكل من يتناولموضوعها بالدراسة العلمية الجادة؛ مثل موضوعات : سيكولوچية التعصب، الآباء المشكلون، تعاطى الحشيش كمشكلة نفسية، القمار، الأحلام، الحب، الأمراض السيكوسوماتية، الربو الشعبي، الإكتئاب النفسى، المعرفة والشفاء، أضواء على المجتمع الاسرائيلي، الطب النفسي والفلسفة المعاصرة، جدل الإنسان بين الوجود والاغتراب..

والدكتور مصطفى زيور في كل ما كتب أو حاضر أو أذاع كان مثالا للنزعة العلمية العقلانية، ونموذجا لالتزام العالم بقضايا الإنسان عامة وقضايا وطنه خاصة في مزج فريد بين عقلانية العالم وموضوعيته وحياده وبين انجاهاته ونزعاته الإنسانية بما هو إنسان، ذلك المزج الذى لا يقدر عليه إلا من امتلك قدرات الدكتور زيور، وتحلى بطباعه وأخلاقياته.

ألم أقل إن جائزة الدولة التقديرية قد تأخرت عليه كثيراً؟؟ لكن حمداً لله!! إذ فاز بها أخيراً، فكان ذلك بمثابة فوز خاص لكل تلميذ من تلاميذه، أو مريد من مريديه. فتهنئة خالصة له ولهم.